مفاهيم مفتاحية في تفسير الوجود

سـؤال: يقول الأسـتاذ بديع الزمان سـعيد النورسي رحمه الله وهو في العقد الرابـع من عمره: "إني حصَّلتُ في أربعين سـنة في رحلة العمر وثلاثين سـنة في طلـب العلم أربعَ كلمات وأربـعَ جُمل"، ثم يذكر هذه الكلمات: "المعنى الاِسْـميّ، والمعنى الحَرْفِيّ، والنيّة، والنَّظَـر"[٤٢]؛ فما الذي يقصده بـ"النظر"؟ وكيف ينبغي أن يكون النظر الإيماني؟

الجواب: أشـار الأسـتاذ النورسي في كتابه المسمّى "المثنوي العربي النـوري" إلـى أهمية هذه الكلمـات؛ وبين هذه الكلمـات علاقةٌ؛ فالأولى الوقـوف عنـد الكلمـات الثـلاث الأول باختصار قبل الانتقال إلى مسـألة "النظر".

المعنى الاسميّ والمعنى الحَرفيّ

المعنى الاسـمي والمعنى الحرفـي مأخوذان من الاصطلاح النحوي، فالاسـم لفظ يدل على معنى في نفسـه، أي متى ذُكِر أدرك السامع معناه؛ أما الحرف فلا يدل على معنى في نفسه؛ لأنه ليس له معنى قائم به، فمثلًا حـروف الجر كـ"البـاء" و"مِن" و"إلى" و"في"، لا يُفهـم منها أيّ معنى عند سماعها وحدها، فلزم أن تُتبَـع باسم ليُفهم معناها.

(٤٢) سعيد النورسي: المثنوي العربي النوريّ، الرسالة الرابعة (قطرة من بحر التوحيد)، ص ١١٧.

كما استخدم الأستاذ مصطلح علم المنطق "الكل والجزء" في معان مختلفة، كذلك فَعَل في اصطلاح النحويين "الاسم والحرف"، فأضفى عليهما معاني مختلفة، وجعل منهما مفاهيم مفتاحية لتفسير الوجود.

يرى الأستاذ النورسي أنه من الخطأ النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب، بل ينبغي أن يُنظر إليها بالمعنى الحرفي؛ فحين تنظر إلى النعمة يجب أن يرد بخاطرك المنعمُ، وإذا نظرت إلى المخلوق يجول بخاطرك الخالقُ، وإن نظرت إلى الأسباب تذكرتَ المؤثِّر الحقيقي.

النية تغير ماهية الأعمال

أما النية فقد ذكر الأستاذ أنها إكسيرٌ يحيل العادات والحركات العادية إلى عبادات، ورُوحٌ تحيي الأحوال الميتة وتحوّلها إلى عبادات حيوية، وتغيّر النيّةُ ماهيات الأشياء أيضًا، فتقلب السيئاتِ حسناتٍ والحسناتِ سيئاتٍ، الرياء مثلًا يغيّر العبادة فيحيلها سيئةً؛ ناهيك أن الإنسان قد يُثاب بالنية وإن أخطأ، فالنبي ﷺ قال: "**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**"(٤٣)، فلعل النية الخالصة هي سبب إثابة المجتهد إذا أخطأ، فإنه لما كان الاجتهاد استخراجَ حكم تركه الشارع لظروف الأحوال والأزمان على أسس ومبادئ تتناسبُ ومقاصدَ الشريعة، أُثيب المجتهدُ -وإن أخطأ- على بَذْل الجهد والوسع لبلوغ ذاك الغرض، أي أثيب على نيته.

وقد يُعاقَب المرءُ ولا يُثاب وهو يحسب أنّه يحسن صنعًا، وذلك إذا لم يبتغ وجه الله تعالى وكانت نيته الشهرة أو المباهاة بالكرم أو العلم.

(٤٣) صحيح البخاري، الاعتصام، ٢١؛ صحيح مسلم، الأقضية، ١٥.

يدل على هذا الحديثُ الشـريف: **"إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْـهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: "فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟" قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْـهِدْتُ، قَالَ: "كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ"، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ؛ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُـرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: "فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟" قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُـهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَـالَ: "كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْـمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَـرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَـالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ"، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ؛ وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: "فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟" قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْـتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: "كَذَبْـتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ"، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"**(٤٤).

أجـل، لـو أنَّ مَنْ يؤلِّف ويعظ الناس ويضفـي على ما يكتب أو يقول لَمَسـات أدبيـة، إلا أنه أَعرضَ عن طلب الرضـا الإلهي وَبَنَى جهوده على فكرة سـاذجة مسـتهجنة كالذِّكر الحسَـن مثلًا، فهذا معناه أنـه طلب أجرًا تافهًـا، مَثلـه مثل الذي يبيـع الجواهر في سـوق الحداديـن، ولو أنه طلب أجـرًا لا منتهـى له مثل رضـا الله تعالى لَأَثمرَ جهدُه وسـعيه ثمارًا مختلفة جذريًّا.

النظر أو أن ترى حين تنظر

أما مسألة النظر فعلى الإنسان أن يعرف طرق الرؤية، فمعلوم أن النظر شـيء والرؤية شـيء آخـر، وأنّه لا يمكن للإنسـان أن يميـز المَرْئيات إن لـم ينظر إليها بقصد الرؤية والاسـتبصار ولو كان مفتوح العينين، فمثلا إذا

(٤٤) صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٢.

لم ينظر الإنسان إلى هذه المكتبة بقصد الرؤية فمن المتعذر عليه أن يميز ما فيها من كتب وخطوط وألوان وزخارف... إلخ؛ أجل، الرؤية تختلف عن النظر، إنها تعيين الأشياء المنظور إليها وتحديدها وتشخيصها.

إلامَ يُنظَر وكيف؟

مثلًا لو نظر الإنسان إلى كل شيء وفقًا لمعايير المكان ثلاثيّ الأبعاد في العالم الماديّ فكثير من الأشياء لا يمكن أن يراها أو يحس أو يشعر بها؛ وذات يوم تداولت وسائل الإعلام مقولة رائد الفضاء السوفيتي يوري جاجارين: "طوفت بالكرة الأرضية كلها ورجعت ولم أر الله"، تعالى الله عما يقول؛ فعلّق الأستاذ "نجيب فاضل"(٤٥) على هذه المقولة في بعض محاضراته بنبرته الخاصة معبرًا عن انحراف فكر هذا الفلكي بقوله: "يا لك من أحمق! من أخبرك أن الله نفاخة معلقة في الفضاء؟".

أجل، إنه ﷻ خالق كل شيء من العدم مبرأ ومنزه عن الزمان والمكان، ولو توهمه الإنسان جسمًا في السماء وحاول أن يراه -تعالى الله عن ذلك- لما استطاع ألبتة رؤية الحقيقة، ولَمَا سلم من الوقوع في مثل هذه الانحرافات.

كل شيء يشهد على وجود الله تعالى ووحدانيته من كلّ وجه، إلا أن عجز الإنسان عن تقويم رؤيته يحول بينه وبين الإيمان، كما كان الكبر والظلم وتقليد الآباء والأجداد يحول دون الإيمان.

وقد قيل في هذه الحقيقة بإيجازٍ يسترعي الانتباه:

تأمَّلْ سطور الكائنات فإنها مِن الملأ الأعلى إليك رسائلُ

(٤٥) نجيب فاضل قِيصه كُورَكْ (١٣٢١هـ/١٩٠٤م - ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م): من أشهر المفكرين والشعراء والكُتّاب الأتراك في القرن العشرين، لُقب بـ"سلطان الشعراء" لطول باعِه في الشعر.

لكن عندما نظرنا إلى الكون بوجهة نظر مادية أو طبيعية أو وضعية لن نستطيع سماع صوت الكائنات التي تعرِّف بالله تعالى بآلاف بل بملايين الألسنة، ورغم أن أمثال هؤلاء يدققون النظر في الكون إلا أنهم ينسبون كل شيء إلى الطبيعة لعجزهم عن الرؤية مع أنهم ينظرون، أو لعدم قدرتهم على القفز إلى ما وراء ما يرونه، وبعبارة أخرى: إنهم لن يستطيعوا تقييم الأشياء والأحداث التي شغلوا بها تقييمًا يدلهم على الذات الإلهية، لأنهم لا يعرفون كيف ينظرون وإلامَ ينظرون.

وللأستاذ النورسي وجهة نظر مهمة في هذا كشف عنها في الكلمة الخامسة عشرة من كتاب "الكلمات"، أشار فيها إلى ضرورة أن ينظر الإنسان إلى القرآن -حين ينظر فيه- بوصفه كلام الله؛ لأننا لو فرضنا أن القرآن قول البشر لقطعنا صلته بالسماء وأنزلناه إلى مستوى البشر.

والحق أن القرآن قد نزل مراعيًا العقل البشري، إلا أن على الإنسان أن ينظر إليه نظرة صحيحة ليشعر بعمق وانشراح حقيقي بهذا الكلام الإلهي المنزل من وراء الماوراء.

النظر الكليّ

وفي مسألة النظر أمر آخر ينبغي الوقوف عنده، وهو النظر الكليّ إلى الأحداث والأشياء، وإن شئتم فأطلقوا عليه النظر الكامل.

وأنوّه هنا أنّه ليس من السهل تحقيق ذلك النظر الكليّ عندما ننظر إلى الآفاق خاصة؛ ولا يتيسر هذا الأمر لكلِّ إنسان، لذا وضع الأستاذ النورسي لهذا الموضوع مقياسًا ومنوالًا ننسج عليه: "التأمّل في الأنفس، والنظرة الإجمالية إلى الآفاق"؛ فمثلًا عندما ينظر الإنسان إلى بنيته ووظائف أعضائه في ضوء علم الطبّ قد يتعرف بيسر على وجوده ثم

يتعمق أكثر من سائر الموجودات، فلو تتبّع الأنظمة العاملة في بنيته بنظرة شعورية لأدرك القدرة المطلقة والعلم المطلق في ذلك التناغم المذهل والنظام البديع؛ ولو نظر إلى أبعادِ عالمِه الداخليّ محورِ بنيته المعنويةِ مثل القلب والروح والسر والخفيّ والأخفى، لَسمع صوت قلبه وفهم أحاسيسه وأدرك معنى الشعور واكتشف إرادته؛ وهكذا يمكن للإنسان أن يصل إلى أبعاد وأعماق كثيرة من خلال التأمل والتدبّر والتذكر والتفكر في ظاهره وباطنه، وفي مادته ومعناه.

أما في الآفاق أي الكون بأكمله فعلى المرء أن ينظر إليها نظرة إجمالية، يقول الأستاذ النورسي ﵀: "إن المعلومات الآفاقية لا تخلو عن الأوهام والوساوس، وأما إذا استندت إلى الأنفس واتصلت بالوجدانيات الشاعرة بالذات، فقد تَصفَّتْ عن الاحتمالات المزعجة، فانظر من المركز إلى المحيط، ولا تعكس فتنتكس"(٤٦).

أجل، على الإنسان أن ينظر إلى الكون عبر الأنفس، أي أن يجعل الأنفس منظارًا ينظر منه إلى الكون؛ لأننا نستطيع أن نرى في الآفاق ما يجرِي في الأنفس من قوانين، وعندما يستطيع الإنسان تتبّعَ هذه السلسلة يمكنه أن يتعمق في الأنفس أولًا، وأن يعلم أن كل القوانين والأنظمة التي في الأنفس إنما تستند إلى قدرة الله المطلقة، ثم يرى نفس القوانين والأنظمة في كتاب الكون أي في الآفاق؛ فيقدر على أن يقرأ الكون بمنظار النظر الكليّ.

(٤٦) سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري، الرسالة السادسة (حَبّة)، ص ٢٢٩.

أفق العرفان

سؤال: وجّه الشاعر التركي "نيازي المصري"[٤٧] الأنظار إلى مسألة العرفان قائلًا:

إن تشأ أيها الزاهد أن تبلغ الكمال فعليك بالعرفان فهو مُبتغاك

وليس في صومٍ وزكاة وحجٍّ وصلاةٍ منتهاك

فما الوسائل التي على العبد أن يتخذها مع أداء التكاليف الشرعية حتى يبلغ درجة العرفان ويكون عارفًا بالله؟

الجواب: الصلاة والصوم والزكاة والحجّ أساس العبادات، وكلمة التوحيد هي المفتاح السريّ لمدخل التعرف على أركان الإيمان والعبادات والطاعات، فكلمة الشهادة جملةٌ مباركة تجمع بين المبدأ والمنتهى، أي هي النقطة الأولى والأخيرة، فلا معنى للإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدَر إن لم تكن، وكذا العبادات لا قيمة ومعنى لها إلا بالولوج من هذا المدخل الذي فتحته هذه الكلمة، فكما جاء في حديث جبريل: الإيمان أولًا ثم الإسلام ومنهما إلى الإحسان، أي إن مبدأ الدين وأساسه الإيمان، أما منتهاه وثمرته فهو الإحسان.

---

(٤٧) نيازي المصري (١٠٢٧هـ/١٦١٨م – ١١٠٥هـ/١٦٩٤م): شاعرٌ تركي صوفي ولد بولاية "مَلَاطْيَا" شرقي تركيا، وأكمل دراسته في الأزهر الشريف؛ فلُقّب بـ"المصري". له ديوان شعر ومؤلفات منها: رسالة الحسنيين، موائد العرفان، وعوائد الإحسان، وهداية الإخوان.

عبادات تُتوَّج بالوعي

والإحسان يشمل العرفان، فمَن أراد أن يصل إلى أفق العرفان فليكن إيمانه راسخًا بدايةً، وليعمل عملًا صالحًا، حتى يغدو هذا ثقافةً وجدانيةً له؛ أجل، إن أقصر الطرق لبلوغ العرفان أداء العبادات بخشوع ودقة ووعي، فإن خلت العبادات من الخشوع والوعي فلا طريق إلى العرفان، ومن لم يبلغ رتبة العرفان فلن يتأتى له بلوغ محبة الله ورسوله ﷺ.

وليُعلَم أن هذه الأمور بنيان واحد لن تبلغ أعلاه إلا بعد المرور بأدناه، والمسألة بهذا المنظور تدلّ على أن ما قاله الشاعر نيازي المصري حقّ.

إن عبادات المحروم من شعور الإحسان ونور العرفان ما هي إلا عادات وتقاليد ما زالت تُؤدَّى منذ قديم الزمان، فهو يصوم لأن من حوله يصوم، ويصلي لأنه رأى أبويه يصليان، ويحجّ لأن الآخرين يحجّون... ومن ثمّ فلا معنى ولا روح في عبادات كهذه لأنها صورة لا غير، ألم يقل سيدنا رسول الله ﷺ في هذا المقام:

"رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ"(٤٨).

نعم، إنّ قدر العبادات وخصائصها رهنٌ تحققُها باقترانها بالعرفان.

فالصلاة مثلًا عندما تؤدَّى في أفق العرفان بشعور الإحسان قد يرى هذا المصلي نفسه عندئذ في ديوان الله المقدس، فإذا حرّك يديه وقدميه شعر كأنه يلامس حجب العرش؛ نعم، يشعر بذلك ويرتعش خوفًا من أن

(٤٨) سنن ابن ماجه، الصيام، ٢١.

يصدر عن جوارحه ما لا يليق بالحضرة الإلهية، ولما تحدَّث الحقُّ ﷻ عن حال النبي ﷺ في الصلاة قال: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٢١٨-٢١٩).

فينبغي لمن لم يستطع أن يبلغ هذا المستوى أن يعلم على الأقل أنّ الله تعالى يراه، وأن يؤدي أركان صلاته كلها بهذا الوعي ما أمكن؛ فأمارة انعكاس شعور الإحسان على سلوك الإنسان وتصرفاتِه: أن يتبع السنة في كل حركاته وسكناته، وأن لا يدور بخلده إلا ما يعلم أنه يليق بهذا المُقام.

أجل، من أجل بلوغ العرفان لا بدّ أن تُتوَّج العبادات بالوعي، فعلى المصلي أن يؤدي صلاته وهو على وعي بها من التكبير إلى التسليم، ومن الخطأ جعل النية لفظًا يُقال في افتتاح الصلاة، فالنية هي قصد القلب، فليمحُ العبد كلّ ما سوى الله تعالى من روحه ومشاعره كلِّها، وليستشعر بعمق أنه يقف بعبودية تامة واستعداد كامل أمام عظمة كبريائه ﷻ، بل عليه أن ينسى نفسه ويفنى جذريًّا، وأن ينسى أنه تفانى، ويجتهد في الحفاظ على هذا الشعور من افتتاح الصلاة إلى اختتامها؛ فإن داهمتك بعض الهواجس فاجتهد في التغلب عليها بالمداومة على منح الإرادة حقها.

وعلى المصلي أيضًا أن يفهم جيدًا معاني الأدعية والآيات التي يقرؤها في الصلاة، وأن يفطن إلى ما تكشفه للقلب من حقائق، وأن يستحضر كل هذه الأمور بوعي حتى السلام.

إن كلَّ جهدٍ وسعيٍ يبذله العبد لأداء الصلاة بوعي تامّ هو من المَعالم الصحيحة المهمة في طريق العرفان.

الاستقامة وكرامة الديمومة

ينبغي أن تكون صلة العبد بخالقه ﷻ متينة راسخة واعية، وأن يواظب على هذا، فالمداومة أمر مهم جدًّا لبلوغ أفق العرفان؛ إنّ معاملة الله تعالى لنا تكون على حسب صلتنا به سبحانه وتعالى ومداومتنا عليها، يقول من كان فـي ذروة أفـق العرفان ﷺ: **"إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ"**(٤٩)؛ نعم، فقطرات الماء ليست هي التي تؤثر في الحَجر بل المؤثر هو دوامها؛ أجـل، فرغـم أن المـاء مادة هينة لطيفة فـإن دوامه يؤثر حتـى في المرمر، فمن الأهمية بمكان أن يلزم العبد الصبر على الطاعة والمداومة عليها مع العزم والثبات والرسوخ حتى يُفتح له في العرفان.

من أجل ذلك يستهويني كثيرًا رأي الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان فـي ليلـة القدر، إنـه يرى أن على المسـلمين أن يتحروها في ليالي السـنة كلهـا، فكمـا أخفـى الله تعالى أشـياء في أشـياء ربما أخفى ليلـة القدر في العام كلِّه، ولا جرم أنّ قيام بعض ليالي رمضان أو ليلة السابع والعشرين منـه وإحياءهـا أمـرٌ ذو قدر وفضـل، غير أن الأصل أن يعـد العبد كلَّ ليلة ليلةَ القدر، وعليه أن يقوم كل ليلة بهذه النية، وأن يعلن عن ولائه لربه ﷻ بالوقوف أمامه بعبودية تامة واستعداد كامل، عسى أن ينير حياته البرزخية بركعتـي تهجد على الأقل، فأين هناءة المضاجـع من ضيافة الرحمن؟ وما أجمل قول إبراهيم حقي رحمه الله في هذا:

يا عينُ ساهري الليل ولا تهجعي

وفي هاتيكِ الليالي مـع الكواكب اسبحي

(٤٩) صحيح البخاري، اللباس، ٤٣؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٥.

وآياتٌ على صفحة سمائنا ارتسمت فتأملي

وابحثي عن خالقها وعليه ضيفًا فانزلي

التواضع كلمة السر لشتى أنواع الخير

إنّ نهج العجز والفقر والشوق والشكر الذي وضعه الأستاذ بديع الزمان طريقٌ مهمّ في بلوغ أفق العرفان، ومفاد هذا المنهج أن المرء قد يهيم شوقًا إلى ربه ويرقى في شدّ معنوي حقيقي إن أيقن أنه لا طاقة له بشيء دون إرادة الله وعنايته، وأن ما تحت يده ملك للغني المطلق ﷻ، فعاش في الدنيا كأنه سلطان وإن كان صِفر اليدين.

ومن الوسائل المهمة للغاية في بلوغ العرفان تلاوة القرآن بتدبّرٍ وإمعانٍ، فبالإبحار في سفينة العلامة المفسر "حمدي يازِرْ"(٥٠)، والبيضاوي، وأبي السعود، والآلوسي إلى أعماق القرآن وخصائصه يشعر العبد بأن القرآن ينزل الآن غضًّا طريًّا، هذا الإبحار يبلغ بالإنسان أفق العرفان، ويجعله دائمًا في شدّ معنوي.

ومن معالم هذا الطريق أن يقضي المرء حياته في تواضع وفناء وحياء لتتكشف له آفاق معرفة الله في وجدانه؛ ذكر العارف "يوسف بن الحسين الرازي"(٥١) أنّ التواضع هو المفتاح السري لكل خير، والكبر والأنانية هما مفتاح كلّ شر، فالمغرور أو الأناني حتى لو سجد وما رفع رأسه طوال عمره لما استطاع أن يبلغ الهدف، يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي الجليل:

---

(٥٠) **محمد حمدي يازِر** (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م - ١٣٦١هـ/١٩٤٢م): من أهم علماء الدين الذين عاشوا في أواخر الدولة العثمانية، أهم كتاباته تفسيره للقرآن الكريم باللغة التركية.

(٥١) **يوسف بن الحسين الرازي** (؟ - ٣٠٤هـ/٩١٦م): أبو يعقوب الرازي يوسف بن الحسين بن علي، زاهد صوفي، من العلماء الأدباء، كان شيخ الري في وقته، وهو من أقران ذي النون المصري.

"الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ"(٥٢).

وثمة وسائل أخرى تبلغ بالعبد أفق العرفان؛ لأن الطرق الموصلة إلى الله بعدد أنفاس المخلوقات.

(٥٢) صحيح مسلم، البر والصلة، ١٣٦؛ سنن أبي داود، اللباس، ٢٦ (واللفظ لأبي داود).

مخلَّفون رضُوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها

سؤال: يقول الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٨١). **إلامَ ترشد هذه الآية رجالَ خدمة الإيمان اليوم؟**

الجواب: قال المفسرون: نزلت هذه الآية في المنافقين، ذمًّا لأفعالهم وتصرفاتهم حيال الجهاد في سبيل الله؛ ومع ذلك فإن الآية قد تضمنت دروسًا وتوجيهات مهمة جدًّا لكل مؤمنٍ يتقاعس عن إعلاء كلمة الله ويخلد إلى الدعة والراحة؛ فالصحابة الكرام وكثيرٌ من عظماء التابعين وتابعي التابعين وعلى رأسهم السيدة عائشة وسيدنا أبو ذر وسيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم كانوا يعدون أنفسهم معنيّين من وجهٍ ما بكل آية نزلت في المنافقين، وذلك ما جعلهم يستنبطون منها كثيرًا من العبر والعظات لأنفسهم.

ولا جرم أنه من الخطأ أن يتهم المؤمن نفسه بالنفاق الاعتقادي؛ لأنَّ معناه الكفر، ويستحيل أن يرضى مؤمن لنفسه الكفر-معاذ الله-؛ فعلى المؤمن أن يقول دائمًا: "الحمد لله على كل حال سوى الكفر والضلال" كما يقول الأستاذ النورسي؛ أجل، إن من ارتضى الكفر وقع فيه؛ فليفرّ المسلم من الكفر والنفاق فراره من الثعبان والعقرب.

ابن آدم: مَن لديه قابلية لأن يكون كل شيء

لكن الإنسان لديه نقاط ضعف بشرية، ولمّا نظر الشيطان إلى سيدنا آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام رأى في بنيته -لا في فطرته وماهيته- وجوهًا كثيرة من القصور والضعف مثل: اتباع الهوى، وحب الشهرة والمنزلة، والشغف بالتصفيق والتهليل، وحب الخلود إلى الراحة، والخوف مما سوى الله، واختلاس مال الغير... فقال كما جاء في القرآن الكريم: **﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾** (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٦/٧-١٧)، فهذه النقاط في الإنسان ملعب يصول فيه الشيطان ويجول، فالإنسان إذًا عرضة للضلال والنفاق والكفر.

وبتعبير آخر: لا يخلو كل المؤمنين عن صفات الكفر والنفاق والضلالة؛ لكن لا يصح ألبتة -بناء على هذا- أن ندعي أن من فيه هذه الصفات ضالٌّ ولا أن نحكم عليه بالكفر والنفاق؛ غير أن على الفرد أن يراقب سريرته دائمًا ليكتشف: أعنده هذه الصفات أم لا، فإن وجدها حاول أن يتنزه عنها فورًا.

تعساء يفرحون بخسارتهم

وبالرجوع إلى موضوعنا نقول: صدر الآية الواردة في السؤال يعبّر عن مدى فرح المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللّٰهِ﴾

ومن يدري فلعلهم كانوا يعتقدون أنهم قد تصرفوا بعقلانية، وربما كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء يحاربون إمبراطورية الروم العظمى،

فسيكتوون بحرّ الصيف وسيواجهون قوة عظيمة، وسرعان ما يرتدون منهزمين؛ كانوا يطعنون في المجاهدين بسهام كلامهم هذا، ويستخفّون بهم، وهم سعداء بالخوض في مثل هذه المسائل.

تعلمون أن غزوة تبوك وقعت في شدة الحر، حتى إن درجة الحرارة في الصحراء حينها كانت تبلغ ٥٠-٦٠ درجة، وقد أثمرت الأشجار فرقَّت ظلالُها حتى راق للنفس الأمارة الركون إليها؛ وليس أشق على النفس من خوضِ حربٍ وتركِ ينابيع المياه العذبة والظلال والثمار اليانعة في شدة الحر، لا سيما أن الأعداء هم الروم الذين بلغوا الأردن.

وكان سلطان الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه يستهدف من غزوه للرومان في فترة عصيبة كهذه أن يعلن للجميع عن وجود قوة ذات سيادة في المدينة، وأن يبسط الأمن والأمان في الصحراء.

وأخيرًا رغم هذه الظروف القاسية خرج رسول الله ﷺ والصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين للقاء الرومان، فاستطاعوا بحول الله وقوته أن يدحروا العدو ويردّوه على أعقابه.

نعم، في جوٍّ قاسٍ كهذا كَره بضعُ مئات من المنافقين الخروجَ ورضوا بالقعود في بيوتهم متعللين بشتى المعاذير، وكان ثلاثة من المؤمنين لم ينفروا مع سيدنا رسول الله ﷺ؛ ومن يدري فلعلّهم اجتهدوا وأخطؤوا، ظانّين أن الخروج لمثل هذه الغزوة فرض كفاية؛ لكنهم -أيًّا كان السبب- تخلفوا عن رسول الله ﷺ، والتخلفُ في مثل هذا الموقف صفة من صفات النفاق، فعوقبوا فترة مؤقتة، إلا أن هؤلاء الأبطال ثبتوا في الامتحان فنجحوا نجاحًا باهرًا، وحظوا في النهاية بعفو الله تعالى.

وقد أشار الحق ﷻ بقوله: ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إلى أن ما كان من المنافقين وقع مخالفًا لأمر رسول الله ﷺ، ودلّ هذا أن الخروج

عن سبيل رسول الله ﷺ خطأ فادح قد يؤدي بالإنسان إلى الهلاك؛ فلا بدّ من امتثال أوامره ﷺ أيًّا كانت الظروف والأحوال.

نشرُ المرض

هؤلاء المنافقون كما تخلّفوا عن الإنفاق في سبيل الله ونأوا بأنفسهم عن تحمل المشاق والصعاب، قد شرعوا ينشرون بذور الفساد والفتنة فيمن حولهم ويؤثّرون فيهم بقولهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

نعم، ثمة أناس كنانتُهم ممتلئة بالفتنة والفساد على الدوام، الإفساد أقواسُهم والفتنةُ سهامُهم، يُشرعون أقواسهم ويطلقون سهام الفتنة دائمًا، يضخّمون الأمور ويهوِّلون الأشياء التافهة ويحاولون الصد عن سبيل الخير.

فكان أمثال هؤلاء يترددون بين المهاجرين والأنصار يحاولون أن يثنوهم عن الحرب ضد الرومان بقولهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

ولفظ "يفقهون" معناه سبر المسألة وتناولها في إطار العلاقة بين السبب والنتيجة والسياق والسباق، فلدى النظر يتبين أن هذا اللفظ أولى هنا من لفظة "يعقلون" أو "يعلمون" اللتين تُستخدمان فيما يسهل فهمه واستيعابه، ولعل سرّ هذا الاختيار التعريض بأنه ليت لهم شيئًا من الفقه وآفاقه، وليتهم استوعبوا هذه العلاقة بين السبب والنتيجة، ولكن هيهات! فقد عجزوا عن إدراك أيّ من هذه الحقائق رغم كل هذه التوجيهات.

لو اعتَبر الناسُ بحوادث التاريخ لَمَا تكررت

لو قارنّا أحداث اليوم بالأمس لَما وجدنا فرقًا كبيرًا بينهما، لم يستطع منافقو الأمس استيعاب هذا، واليوم لم يقدر قوم على إدراك ضرورة

العمل في سبيل الله وأهميته؛ وما حدث بالأمس يتكرر اليوم، فنجد قومًا يستخفّون بالهجرة، ويحطون من شأن الجهاد في سبيل الله، ولا يُعنَون بتحليق الروح المحمدية في أرجاء العالم كافة، والمكانُ الذي لا تحلّق فوقه هذه الحقيقة لا فرق بينه وبين السجن؛ فلا بدّ من "الفقه" لنعزم على مجابهة شتى أنواع الصعاب في سبيل الوصول بهؤلاء السجناء إلى أجواء تبعث فيهم الفرح والسرور، لأن هذه المسألة لا تُدرَك بالنظرة السطحية.

والخلاصة أنه لا بدّ من تحمل شتى أنواع المشاق والصعاب مرة أخرى في سبيل إعلاء كلمة الله ليتجدد اتصال القلوب بالله، وذلك بإزالة كل عائق يحول بين الله وبين القلوب، فلْنسعَ دائمًا بأقصى سرعة دون توانٍ أو فتور لنغمر القلوب بإلهامات أرواحنا، ولنبلغ الآخرين بموروث سماوي أربى على ألف عام؛ وليُعلم أن سبيل النجاة من نار جهنم في الآخرة مرهون بتحمل الحرّ هنا؛ أجل، إن المعاناة هنا سبيل إلى الراحة هناك، والمشقة هنا طريق إلى اليسر هناك.

القرآن والاكتشافات العلمية

سؤال: كلما ذُكر اكتشاف أو اختراع علمي قيل: في القرآن الكريم إشارة إليه، فما المنهج الذي على الباحثين أن يسلكوه عندما يبحثون الحقائق العلمية في القرآن الكريم؟ وما الرسائل التي يحملها هذا القسم من الآيات للباحثين خاصة في العلوم الطبيعية؟

الجواب: لله تبارك وتعالى كتابان اثنان: القرآن والكون، فيستحيل تَعارُضهما.

أجل، فالقرآن المعجز البيان مصدره صفة الله "الكلام"، وكتاب الكون الكبيرُ مصدره صفة الله "القدرة والإرادة"، والقرآن الكريم ترجمةٌ أزلية وقولٌ شارح وبرهانٌ واضح لكتاب الكون، إن القرآن يشرح كتاب الكون فيستضيء الكون بنوره، وبتعبيرٍ آخر: القرآنُ يفسّر الأوامرَ التكوينية والأسرار الإلهية والأفعال الربانية.

ولما كان الفرقان العظيم الشأن يفسِّر الكون ويشرحه، تضمن إشارات لبعض العلوم والفنون التي تبحث في حوادث الكون؛ فبَحَث العلماء منذ قديم الزمان في الآيات التي تشير إلى الحقائق العلمية كما التي في المسائل الإيمانية والتعبدية والأخلاقية، وكانت لهم آرء في تفسيرها وتأويلها.

إليكم مثلًا الإمام ابن جرير الطبري ﷺ (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): جاءت آراؤه قريبة من نتائج الأبحاث العلمية في زماننا؛ أجل، قام هذا المفسِّر العظيم منذ أكثر من ألف سنة بتفسيرات وتأويلات تفوق المستوى العلمي في عصره، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ٢٢/١٥) ذكر تلقيح الرياح للأشجار، والأغرب أنه عرض لتلقيح الرياح السحابَ لينزل المطر، رغم أنه عاش في عصر لم تكن له دراية بعدُ بأن في السحاب شحنات موجبة وسالبة.

وليس ابن جرير فحسب، بل هناك مفسِّرون آخرون أتحفونا بآراء متميزة في تفسير آيات الأوامر التكوينية، غير أن هذه المسألة لم تُفرد بالدراسة في فرع علمي متخصص مستقل إلا في القرنين الأخيرين، بدأ العلماء في زماننا يبحثون المسائل العلمية في القرآن الكريم لكن في ظل العلم الوضعي في هذا العصر.

وممن عرض لتفسير بعض الآيات في الحقائق العلمية: الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) وأنجبُ طلابه الشيخ رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م)، إلا أنهما قد خالفا في بعض آرائهما ما ذهب إليه المفسرون.

وقام العالم المصري طنطاوي جوهري (ت ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م) بتفسير الآيات العلمية في القرآن الكريم في ضوء التطورات الحديثة في العلم والفن، وسمى كتابه "الجواهر في تفسير القرآن الكريم"، لا نستطيع القول بأن هذا الكتاب على المستوى المطلوب في في كل موضع، لكنه محاولة لتفسير كثير من الآيات في ضوء نتائج العلم الحديث، وعدّه بعض العلماء موسوعة أكثر منه تفسيرًا.

وكان لعلماء آخرين جهدٌ في هذا الأمر أيضًا.

وحمادى القول أن جهود كثير من العلماء في الآونة الأخيرة فَتحت آفاقًا جديدة في التفسير العلمي للقرآن الكريم، وقامت حوله دراسات كثيرة في العالم الإسلامي، وممن قاموا بدراسات مهمة في هذا المجال الأستاذ الدكتور "زغلول النجار"، فقد تابعتُ برامجه على التلفاز زمنًا طويلًا؛ إن هذا العالم الكبير قامة عظيمة ذات مستوى علمي فائق، سبَرَ أغوار القرآن الكريم، ولم يجد صعوبة في الحديث عن هذا المجال، وعبّر عن المسائل التي يتناولها بدقة تامة.

أما الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي فلم يفصّل كثيرًا في هذا الموضوع، واكتفى بشرح آيات دار حولها جدل في زمانه مثل: انبجاس الماء من الحجر بضربةٍ من عصا سيدنا موسى عليه السلام، وجلب "الذي عنده علمٌ من الكتاب" عرشَ بلقيس؛ لكنه أشار إلى أن الحقائق العلمية الواردة في معجزات الأنبياء هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه العلم والاختراع في الماضي والحاضر والمستقبل، وأن فيها تشجيعًا للناس على الدراسة والبحث، يقول: "إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء إنما يخطّ الحدود النهائية لأقصى ما يمكن أن يصل إليه البشر في مجال العلوم والصناعات، ويشير بها إلى أبعد نهاياتها وغايةِ ما يمكن أن تحقّقه البشرية من أهداف، فهو بهذا يعيّن أبعد الأهداف النهائية لها ويحددها، ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضّها على بلوغ تلك الغاية ويسوقها إليها، إذ كما أن الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه، فالمستقبل أيضًا حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله"[٥٣]؛ وفي رأيي أن وجهة النظر هذه لا بدّ من العناية بها كثيرًا.

(٥٣) سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة العشرون، المقام الثاني، ص ٢٧٨.

منزلة الاكتشافات العلمية في المقاصد العامة للقرآن الكريم

أما عن نسبة الاكتشافات والاختراعات العلمية المذكورة في القرآن الكريم، فقد ذُكرت بقدر منزلة هذه الاكتشافات في المقاصد العامة للقرآن الكريم؛ والنظرة الشاملة إلى القرآن المعجز البيان تكشف أن من أولوياته توجيهَ البشر إلى طريق السعادة الأخروية من خلال بيانه لأركان الإيمان والإسلام، وضمانَ سعادتهم الدنيوية بما شرع من أحكام ونُظُم للفرد والأسرة، أي إنه أعطى الأولوية للمسائل الحياتية التي تهيئ للإنسان سبل السعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة.

والنظر إلى المسألة في ضوء هذه المعايير يبين أن مسائل الاكتشافات والاختراعات العلمية جاءت في القرآن في درجة تالية للموضوعات الأساسية الكفيلة بسعادة الدارين، ثم إن القرآن الكريم كتاب يخاطب الناس جميعًا لا أرباب العلوم فحسب، وكما أن موضوعاته عامة للناس جميعًا فكذلك أسلوبه يفهمه غالب الناس، ولو أن القرآن راعى أفق أرباب العلوم فحسب -وهم ٥٪ لا أكثر- وأورد موضوعاته وفقًا لمستواهم، لَما استفاد منه ٩٥٪ من البشر.

عُقدة الدُّونية والتأويلات المتكلفة

إن من المنهج المستهجَن الواجب تجنبه نسبةَ أشياء غير لائقة بالقرآن الكريم إليه، والتكلفَ في تفسير آيات الحقائق العلمية، والسعيَ وراء التميز فيها، أمّا تقويم حقائق القرآن الكريم في ضوء نتائج العلوم الوضعية فهو سوء أدب مع كلام الله تعالى؛ أجل، إن السعي وراء تطويع تفسير القرآن الكريم للقضايا العلمية والطبيعية -وكأن تلك العلوم واختراعاتها

هـي الأصـل- والاسـتعانةَ بها لإثبات صحـة قضايا القـرآن الكريم منهج لا يتناسب مـع كلام الله ألبتة.

أمـر آخـر: إن للقـرآن الكريـم أسـلوبًا خاصًّا بـه في عـرض القضايا العلمية، وهذا الأسلوب مناسب لمستوى كلّ من المخاطبين في الماضي ومـن قطعوا مسـافات هائلة فـي العلوم والفنون اليـوم، أي ليس هناك أيّ تضاد أو تعارض بين ذكره لحقائق علمية تُكتشف اليوم وكونه آيات بيّنات راعـت مسـتوى فهم الناس في ذلك العصر، فالقـرآن الكريم تحدّث مثلًا عن المراحل التي يمرّ بها الجنين في بطن أمه في سورة الحج والمؤمنون وغافـر وغيرهـا، فقرأهـا الأولـون وفهموهـا واسـتفادوا منهـا وَفْقًا لأفق إدراكهـم، وأخذت أطباءَ النسـاء والتوليد في عصرنا الدهشـةُ والإعجابُ أمام هذه الحقائق التي بيّنها القرآن الكريم إجمالًا بأسلوبه الخاصّ.

مسألة أخرى لا بدّ من مراعاتها عند تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في ظل التطورات العلمية: ينبغي أن يُذكر أنّ في المسألة احتمالات ممكنـة وأنـه لا قطـع فيها، أي قد تتضمن هـذه الآيات والأحاديث معاني أخـرى، لا سـيما أننا لـو أجرينا دراسـة في مجـال جديدٍ وقطعنا بتفسـير الآيات فيها قبل أن تتضح ماهيةُ المسائل العلمية التي نتناولها فإن وقوعنا في أخطاء فادحة وارد.

ولا بدّ أيضًا من الرجوع إلى الدراسـات السابقة في التفسير، للوقوف على ما ذكرته المراجـع الرئيسية حتى الآن في الموضوع.

ومن المفيد هنا التطرق إلى المسألة التالية: ينبغي لمن سيعمل في التفسير العلمي أن يكون بدايةً على دراية كبيرة بالعلوم الشرعية: يتقن اللغة العربية ويعرف دقائقها وقواعدها، ويكون على دراية بعلم التفسير والحديث والفقه وأصولـه وأصـول الدين... إلخ، وأن يتزود بمعلومـات في العلوم الطبيعية

بقدر يؤهله لفهم موضوعات هذه العلوم؛ وكذلك يجب على الباحث في العلوم الوضعية أن يتزود بمعارف موسوعية في العلوم الدينية، كما يجب عليه أن يسبر أغوار تخصصه كي يتمكن من الوصول إلى الحقيقة.

والمؤسف أن هذين العِلْمين يسيران الآن في اتجاهين مختلفين، فترى متخصصًا في العلوم الطبيعية يغذّ السير في مجاله ولا يعرف عن الدين إلا قليلًا، ومعنى "لا يعرف" أن التزود بالمعلومات الأولية ليس معناه العلم بالدين، بل إنْ كان يحفظ القرآن كله ويحفظ صحيح البخاري أيضًا فلا يعني هذا أنه على علم تام بدينه، لأنه لا بد من معرفة الأصول حتى يتسنى للمرء الفهم الصحيح لمقاصد الشريعة.

قلوب مؤمنة عاشقة للاكتشافات

إن الغرب اليوم ينقّب ويدرس الحوادث والموجودات بما يجريه من دراسات في مجال العلوم الطبيعية، وليس لنا إلا أن نحتار ونعجب من إقدامهم وجهودهم في هذه الدراسات، لكنهم لا يعرفون الله ورسوله ﷺ، فصاغوا كلَّ شيء في قالب ضيق في إطار الحدود المادية للأشياء، فجاءت الأنظمة التي وضعوها أقرب إلى المادية أو الوضعية أو الطبيعية، أي إن أفق الباحث الغربي محدود بما تسمح به هذه الأنظمةُ التي ترى المادة كلّ شيء.

يؤكد الباحثون في تاريخ العلم والفلسفة أن العلماء المسلمين قاموا بدراسات مذهلة في العلوم والفنون حتى القرن الخامس الهجري، وهذه الفترة هي عصر نهضتنا؛ أجل، لقد أجرى العلماء المسلمون دراسات خطيرة في الطب والهندسة والفلك يوم لم يكن للغرب أي تصور عن مثل هذه المسائل، وابتكروا اختراعات هائلة، لكن منذ عشرة قرون أي بعد القرن الخامس الهجري نأسف أنا أهملنا هذا الأمر وتركناه حيث هو، فاستلم الغرب الراية وتقدموا نحو الأمام كثيرًا، وبهذا تسنى لهم

وضع الحجر الأساس للنظام الحالي للعلوم الطبيعية، فأسَّسوا الأمر على أفكارهم، وقيّموا الأشياء والأحداث وفقًا لآرائهم.

إن للعقل المجرد حدًّا ينتهي إليه في إدراك الحقائق، فهو إنما يدرك قسمًا منها فقط، وله حد معلوم في توضيحه للمسائل محل البحث، لكن هناك مسائل لا تُفهم إلا بالوحي، والقولُ الفصلُ فيها للوحي وحده.

إذًا لا بدّ من إعادة بناء النظام العلمي والبحثي على توازن صحيح يراعي الروح والميتافيزيقا إلى جانب المادة، وعندئذ يمكنكم أن تقيّموا بدقة الأشياءَ التي دققتموها بالتلسكوب والميكرسكوب وأشعة إكس.

ولا يعني هذا أننا نقول: إنّ كلّ ما اكتشفه الغرب خطأ؛ لأن لوجود العقل حكمة، فكم مِن حقائق ما اكتُشفت إلا اعتمادًا على العقل، فوجوده له حكمة، لكن لا بدّ من إعادة دراسة جميع النظريات المكتشفة حديثًا استنادًا إلى المادة فقط، وتقويمها بالتحليل والنقد والتمييز بين صحيحها وسقيمها، وهذا منوط بإعادة بحث العلوم الوضعية في مدار القرآن الكريم وفي إطار عقيدتنا، ولا ينجح في هذا إلا من يفهم القرآن الكريم فهمًا صحيحًا.

ويتحدث البعض في هذه المرحلة عن استيراد العلوم و"أَسْلَمَتِها"، وهي محاولة قاصرة لا تُنتج، فهي كالثوب المستعار؛ والواجب هو تناول المسائل بأصولها، وتقويمها بالتحليل والنقد في ضوء القاسم المشترك بين العقل السليم والحس السليم والخبر المتواتر؛ وبهذا نصل إلى نتائج سليمة، وهذا مرهون بتربية عُشّاق الحقيقة والعلم والاختراع.

فإن رغب المسلمون في تأليف كتاب تفسير للقرآن الكريم يخاطب مستوى إنسان العصر فلا بدّ أولًا من تشكيل لجنة من المتخصصين لهم باعٌ واسع في كافة العلوم، فتتدارس المسائل فيما بينها أولًا، وتميز

الصحيـح من السـقيم في ضوء معايير علم الأصـول وعلم أصول الدين، ولا تثبت أي تفسير أو تأويل إلا بعد اتفاق الوعي الجماعي.

فإن شُكلت لجنة كهذه من المتخصصين في العلوم الإسلامية والعلوم الوضعية فلن يشـوب هذا العمل -بعـون الله وفضله- تهافت أو خيالات، ولن يكون عرضة للتأويلات المتكلفة.

أملنـا ورجاؤنا أن يقدِّم علماءُ عصرنـا الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان كلَّ جهودهم في هذا، ويقولوا ما ينبغي قولُه في التفسـير المنشـود استنادًا إلى كلّ تجاربهم؛ وهذا بعضُ ما للكتاب العزيز القرآن الكريم علينا -نحن مسلمي اليوم- من واجب الوفاء والولاء له.

من المعرفة إلى السلوك

سـؤال: كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم إذا ما نزلت آيةٌ أو سـورةٌ من القرآن الكريم سـارعوا إلى تطبيقها في حياتهم، أما نحن فلا نسـتطيع أن ننهج هذا النهج فيما نعلَمه، فما السـبب يا تُرى في عجزنـا عن تحويل العلم إلى عمل وسلوك؟ وكيف يتأتى لنا هذا؟

الجـواب: حتـى يتسـنى لنـا تحويـل المعرفة إلى سـلوك لا بـدّ أولًا مـن أن تتجـاوز هذه المعرفـة كونَها معلومات سـطحية بحتـة بأن تتحول إلـى "علـم"؛ والعلـم يعني إدراك جوهـر المسـألة وماهيتَهـا واسـتيعابَها بوعـي وفكرٍ منظم؛ أمّا إن ظلت معارفنا معلومات سـطحية ليس إلّا فإنها لن تثير فينا أيَّ حركة أو نشاط؛ لأنها لا تنفذ إلى القلب؛ وعلى ذلك فأول ما يجب القيام به لتحويل المعرفة إلى سـلوك هو السـعي إلى بلوغ العلم الحقيقي بشـوق ونهَم لا يعرف الشبع، ثم إلى بلوغ اليقين؛ قال الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٢٠/١١٤).

علـى كلِّ واحـد مِنّا أن يسـعى لطلب العلم، ويسـير علـى درب "هل مـن مزيد؟" بشـوقٍ كشـوق الأنبيـاء، وألا يقنـع بما حصّله مـن علم ألبتة، وأن يتسـاءل: يـا تُرى هل هناك شـيء آخـر وراء هذا؟، وأن يسـعى دائمًا إلى الأعماق.

مثـلًا أُمرنـا بقـراءة القرآن الكريم أمـرًا مطلقًا، فإذا لم نسـعَ إلى فهم القـرآن الكريـم وقراءتـه بتدبـر وإمعان فلا جـرم أن خزائنه سـتُغلق علينا ولـو كنّـا من حفّاظه، وسـيتعذر علينا الاسـتفادة من هـذا المنهل النوراني الـذي يضيء العوالم كلها؛ لأنّ القـراءة بحضورٍ وإمعان تفيض على قلب الإنسان معاني لا يمكن تحصيلها بطريق آخر.

أداء شكر العلم

بعـد المرحلة الأولى أي مرحلةِ تحويلِ المعلومات إلى معرفة، ينبغي ملاحظة ما يلي:

قـد يبلـغ الإنسـان عمقًا علميًّا ممتازًا، ثم يبلـغ درجة علم اليقين، بل حتى أفق عين اليقين، لكنه إن لم يحوِّل علمه إلى عمل بعد بلوغ هذا الأفق فإنـه لـن يتمكن من إدراك حقيقة الألوهية بأسـمائها وصفاتها وشـؤوناتها على الوجه الأكمل، ولن يسـتطيـع أن يكون عبدًا صادقًا لمولاه ﷻ؛ رُوِيَ عـن رسـول الله ﷺ أنه قال: "**مَنْ عَمِـلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللهُ مَا لَـمْ يَعْلَمْ**"(٥٤)؛ فسبيل الحصول على ميراث العلوم التي بشّر بها هذا القول المبارك هو أن يعمـل المـرء بما يعلم، إذًا على من بلَّغه الحقُّ تعالى مبلغًا في العلم وميّزه علـى غيـره أن يعطي هذه الميزة حقهـا دون أن يرى نفسـه متميزًا، وذلك بأن يسعى ليشكر ما أُوتي من العلم، فلو كان غيرُه يصلي في اليوم أربعين ركعة، فليسـأل نفسـه: "ما لي لا أصلّي ثمانين ركعة شكرًا لهذه النعم التي أغدقها الله علي؟"، ولْيُبْحِرْ في عالم الإحسان.

وإليكم هذه الحادثة على سـبيل الاسـتطراد: ذات يـوم قالت لي أمي رحمهـا الله: "يـا حاجّ، "حزبُ أنوار الحقائق النورية"(٥٥) وِردي اليوميّ، فيا

(٥٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ١٠/١٥.

(٥٥) حزب أنوار الحقائق النورية: كتاب أدعية فيها سور من القرآن وبعض الأدعية والأوراد، أكثر من مائة صفحة.

ترى هل هناك شيء آخر توصيني بقراءته؟"

إنها أصداء وأنفَاس أفق "هل من مزيد؟".

أجل، على من حظي بلطف الله وإحسانه أن يتوجه إليه تعالى بقدر هذا اللطف والإحسان، تتحدث السيدة عائشة ﵂ عن عبادة سيدنا رسول الله ﷺ فتقول: "إن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه"، وفي هذا تذكّروا إن شئتم قول الإمام البوصيري ﵀:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنِ اشْتَكَتْ قَدَماهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

وأمام هذا المشهد سألته أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂: "لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟"، فقال:

"**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**"(٥٦)

وهذا القول فيه إشارة مهمة للشعور بالعبودية: على كلّ عبدٍ أن يحمد الله ويشكره، كُلٌّ على قدر ما أفاض عليه من ألطاف وإحسان؛ فينبغي أن يكون عمل الإنسان على وفق مكتسباته العلمية.

العقل العملي

ولكم أن تتذكروا في هذا الصدد فكرة الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" في مؤلَّفه "نقدُ العقل المجرَّد": أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى بالعقل المجرد، ولا يمكن الوصول إليها أي إلى آفاق معرفته إلا بالعمل، فإنْ تحقق هذا -أي تَحوَّل العلمُ إلى عمل- تكونت لدى الإنسان معرفة إلهية عميقة، ثم محبة إلهية واسعة، حتى إنه عندما يذكر الله تجيش مشاعره، فيتمنى من صميم قلبه أن تأتي ساعة لقاء مولاه ﷻ ليتخلص فيها من وحشة الدنيا، فتراه يقول: اللهم لقاءَك، اللهم لقاءَك!

(٥٦) صحيح البخاري، التفسير، سورة الفتح، ٢؛ صحيح مسلم، صفات المنافقين، ٧٩.

يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "اعلمْ يقينًا أن أسمى غاية للخلق وأعظمَ نتيجة للفطرة الإنسانية هي "الإيمان بالله"، واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو "معرفة الله" التي في ذلك الإيمان، واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن وأحلى نعمة هي "محبة الله" النابعة من تلك المعرفة، واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه هو اللذة الروحية المترشحة من تلك المحبة"(٥٧).

لا تُطلب اللذة الروحية التي ذكرها الأستاذ بديع الزمان، بل يهبها الله تعالى لعبده فضلًا منه؛ فإن حصلت هذه اللذة الروحية فسيظهر الشوق لرؤية جمال الله، وما كلُّ الجماليات إلا ظلٌّ لِظلِّ ظلِّ تجلي جماله، سيظهر ذلك الشوق كأنه شلّال هادر في داخلنا، فإن لم نشعر بمثل هذا الشوق والاشتياق في أنفسنا فهذا يعني أننا ما زلنا في الطريق ولم نكمل بعدُ هذه المسيرة، ولا أرمي بكلامي هذا إلى إحباط الآمال أو التيئيس؛ لكن علينا أن نعرف أن هذا هو حقّ الطريق الذي نسير فيه؛ ولذا أقول مرة أخرى: تعمَّقوا في العلم المجرد كما تشاؤون، ولكن إن لم تحوِّلوا هذا العلم إلى عمل فستظلون حيث أنتم، فإن فعلتم إلا أنكم لم تتعمقوا في هذا العمل لتصلوا منه إلى العرفان فستظلون كذلك حيث أنتم، ولن تتجاوزوا الصور والشكليات، حتى إن أداءكم للعبادات والطاعات سيكون من باب إسقاط الفرض فحسب؛ نعم، تقومون بحركات لكنكم لن تصلوا بها إلى معرفة الله، ولن تشعروا بمحبته، ولن تبلغوا اللذة الروحية.

ويشبّه القرآن الكريم من لم يعمل بما علِم بقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (سُورَةُ الْجُمُعَةِ: ٦٢/٥)؛ لذا لا بدّ أن يكون الإنسان متحمسًا وحذرًا في هذه المسألة كيلا يتردّى في هذا الدّرْك.

(٥٧) سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب العشرون، المقدمة، ص ٢٦٩.

أجل، إن لم يعمل المرء بما يعلم، ولم يُفعِّل علمه في حياته الخاصة والاجتماعية فسيغدو علمُه كأنه حِملٌ لا يُطاق، وسيندرج تحت العلم غير النافع وغير المثمر؛ من أجل ذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من العلم المجرد قائلًا: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**"(٥٨)، وفي هذا توجيه لنا إلى الاعتصام بالدعاء والاستفادة من طاقة التضرع إلى الله في تحويل المعرفة إلى سلوك.

آفاق تتفتح بالقراءة الجماعية

إن العمل الفردي من قراءة وتفكر وبحث وتدقيق في دراسة الحوادث والأشياء وتقويم علاقة الإنسان بالكون وبربّه أنشطةٌ ممتعة مفيدة، لكن الفضائل المستفادة من الكينونة في جو وبيئة مناسبة مع ثُلَّة من الأصفياء التقَوا على فكر ومنهج واحد تبدو متميزة أيمّا تميز، فهذا الجو وهذه المجموعة من يلج فيهما يغدو ذا صبغة جديدة تَفتح له آفاقًا جديدة؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/١٠).

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ**"(٥٩).

فالآية والحديث يشيران إلى فضيلة الكينونة مع الجماعة، ويحذّر النبي ﷺ في حديث آخر من خطر البعد عن الجماعة، فيقول:

"**عَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**"(٦٠).

---

(٥٨) صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٧٣.

(٥٩) سنن الترمذي، الفتن، ٧.

(٦٠) سنن أبي داود، الصلاة، ٤٦.

يبين النبي صلوات ربي وسلامه عليه أنّ الذئب لا يأكل إلا مَن يتحرك خِلاف الوعي الجماعي ويخرج من الحلقة، ولا يتحرك مع الجماعة ولا يتبع خطواتها؛ لذا ينبغي أن نجتهد في البقاء داخل إطار الجماعة، وأن نساند بعضنا، وأن نمتنع عن الحركة وحدنا.

أمر آخر لا بدّ منه هنا: لنجنّبْ مجالسنا اللغو واللهو، ولنستثمرها في التعمق بالعلم والمعرفة دون أن نضيّع ولو ثانية من وقتنا، ويؤلمني أنَّه لا يمكن القول بأنّا قد عُنينا بهذا الموضوع كما يجب، بل حتى اجتماعاتنا من أجل الدين والإيمان وخدمتهما قد نشغلها بمسائل تافهة لا فائدة منها في حياتنا الدنيوية والأخروية، وبتصرفاتٍ تخلو من الجدّ والوقار وتسوقنا إلى الغفلة؛ أرى أن على القلب المؤمن أن يوصد الباب أمام هذه الترّهات، وأن يقضي حياته على نسق نظام التكايا والزوايا؛ نرى في الصحاح أن النبي ﷺ لم يكن يضحك إلا نادرًا؛ نعم، كان وجهه المبارك دائم البشر والتبسم، لكن ذلك كان مع جد ووقار، كان في كلِ أحواله كأنه بين يدي ربه، ومن رأى أحواله وأفعاله بل ونظراته تذكّرَ الله فورًا.

وحمادى القول أن علينا أن نستثمر مجالسنا جيدًا في بلوغ أفق القلب والروح، حتى نتزود بالعلم النافع ونجعلَ هذا العلم حياةً لحياتنا؛ أجل، يجب أن تكون أحاسيسنا وأفكارنا ومشاعرنا ومحاوراتنا ومذاكراتنا مستقيمة أتم ما يكون، وأن تتجه إلى تعميق أفق القلب والروح وإثرائهما لنهتدي إلى الطريق السوي المستقيم دون تخبطٍ أو انحرافٍ يمينًا ويسارًا أو تيهٍ أو انزلاقٍ إلى منعطفات جانبية.